صلاح الدين

الباب الأول

في هذه القبيلة ومن هذه الأسرة ولد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو من أكبر ملوك المسلمين همة وأقواهم شوكة وأشدهم صولة وأبعدهم صيتاً . ولد بمدينة تكريت سنة ٥٣٢ هـ (وهذه السنة توافق المدة من ١٩ سبتمبر سنة ١١٣٧ إلى ٨ سبتمبر سنة ١١٣٨ م) ولا يعرف التاريخ الشهر الذى ولد فيه صلاح الدين ، ويحتمل على هذا أن يكون قد ولد فى سنة ١١٣٧ ، ذلك ما يقوله استانلي لين پول ومما يحققه قول ابن شداد فى سيرة صلاح الدين «كان مولده رحمة الله عليه على ما بلغنا من ألسنة الثقات الذين تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت »

كانت ولادته يوم أن أمر مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت والده نجم الدين وعمه أسد الدين بمغادرتها لقتل شيركوه أحد ضباط القلعة لملاحاة بينهما ؛ ويقول بعض مؤرخي الأفرنج إن ولادة صلاح الدين كانت يوم أن أمر بهروز والده وعمه بالخروج من تكريت ، وهو زعم فاسد ، ذلك لأن الناس اعتادت الظن بأنه كلما ولد عظيم من العظماء لا بد أن يوافق يوم ميلاده حدوث حادث ذي بال

obeikandi.com

على أن هؤلاء القائلين قد ظنوا أن فى إجماع المؤرخين على ربط الحادثين بعضهما ببعض ما يثبت زعمه الذى زعمه ، ولكنى لا أرى أهمية لهذا التعليل ، ولم يتحمل المؤرخون هذا كله ، فليولد العظيم فى أى يوم كان خمل هذا اليوم أو نبه

غير أنه مما يؤكد عندى أن ولادة صلاح الدين حدثت عند وجوب رحيل أهله من تكريت ، إجماع المؤرخين من جهة ، ومن جهة أخرى ما ذكره الكاتب النصرانى الذى كان فى خدمة نجم الدين ، والذى رحل معهم إلى بعلبك ثم إلى مصر ، وذكّر نجم الدين بما كان قد هم به من قتل ولده صلاح الدين عند ما كان يصيح وهو طفل وهم خارجون من المدينة ، وقال له لعل الله جاعل له شأناً ، فاستبقه فهو طفل ليس له ذنب ولا يعرف ما أنت فيه من الكدر والغم ، ذكّره بهذا يوم أن كان الجميع فى مجلس من مجالس شورى صلاح الدين بمصر ، وهى حادثة وردت فى أكثر الكتب الموثوق بها والتى كتبت عن صلاح الدين

وإلى حالهم المكدرة بسبب رحيلهم يشير استانلى لين پول بقوله « فرحلوا عن تكريت تحت عامل اليأس والندامة وسوء الطالع ». ثم يقول « وتشاءم أيوب من أنه ليلة رحيلهم رزقهم الله بمولود جديد من أيوب ، فكان ظهور هذا المولود لديهم من أنحس الحظوظ وأكثرها شراً وكان بكاء هذا المولود مما يزيد في سخط والده عليه »

وفى هذا برهان على صحة ما قاله الكاتب النصرانى ؛ ومما يزيده صحة

ما جاء في كتاب طبقات الشافعية عند الكلام على صلاح الدين « وقيل إن أباه خرج من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين ، فتطيروا به وقال بعضهم لعل فيه الخيرة وأنتم لا تعلمون ، فكان كذلك»

مر بنا الكلام أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين كان محافظاً لقلعة تكريت من قبل بهروز ، وقد حدث أثناء ولايته عليها أن سار عماد الدين زنكي والد محمود نور الدين زنكي وصاحب الموصل بجيش لمظاهرة السلطان مسعود — كما يقول ابن خلدون — على الخليفة المسترشد سنة ٥٢٠ هـ وانهزم الأتابك عماد الدين ، وانكفأ راجعاً إلى الموصل ، ومر بتكريت ، ولم يكن له أمل في الخلاص هو وفلول جيشه إلا في هذه القلعة وأصبحت حياته هو وجيشه في يد مستحفظ تكريت ، إن شاء أسعدهم وإن شاء أرداهم ؛ ولكن لحسن حظه فضّل الأحسان على الأساءة وقدم المساعدة لعماد الدين وقام بعلوفته وإزواده ، وعمل له الجسور على دجلة وسهل له عبوره ، فكانت هذه اليد هي التي بنت ملك أيوب وأقامت عز صلاح الدين وبيته ، لأنه لما أحرج بهروز نجمَ الدين وأخاه أسد الدين رحلا إلى عماد الدين زنكي الذي لم يكن لينسى فضل تكريت ومستحفظها عليه يوم هزيمته ، بل بقي يذكرها ويذكر فضلها ويقر بما لها عليه ، حتى إذا ما وصل إليه نجم الدين وأخوه شيركوه أحسن وفادتهما وعرف لهما سابق معروفهما ، فاقطعهما إقطاعاً حسناً

عاش نجم الدين وأخوه شيركوه هناك بسلام ، ومعهما المولود الصغير يعملان في جيش زنكي ، فبرهنا على مقدرة فائقة ، وحضرا عدة مواقع .

ولما سقطت بعلبك في يد زنكي سنة ٥٣٤ (١١٣٩ م) عهد بها إلى أيوب وعينه محافظا عليها ؛ وفي هذا الاختيار برهان قاطع على مقدار وثوق زنكي بنجم الدين أيوب وحسن اعتماده عليه

توفى زنكي واقتسمت أولاده ملكه من بعده ، واستولى ولده محمود نور الدين على الشام ، وهبت دمشق لاسترجاع بعلبك ، ونظر أيوب بما أعطي من الحذق والمهارة وبعد النظر فرأى أن الدمشقيين لا بد لهم من أن يسترجعوا المدينة ، إذ الأخوان ولدا زنكي لا يزالان يقتسمان تراث ملك والدهما ، فقبل نجم الدين تحت هذه العوامل كلها أن يسلم للدمشقيين بعلبك على شريطة ان يقطعوه عشرة ضيعات بجوار دمشق ، وان يهبوا له قصراً في دمشق نفسها لسكناه ؛ فقبل الدمشقيون شروطه هذه ثمناً لمدينتهم بعلبك ؛ فرحل أيوب إلى مقره الجديد وسكن دمشق وأظهر من الفطنة والذكاء والخبرة ما حببه إلى أيبك أكبر أولاد توغتكين ، وما زال يقرب نجم الدين إليه ويهبه من الوظائف في حكومته ما أوصله إلى مرتبة قائد قواد دمشق كلها . ولا بد أن يكون أيوب قبل أن يصل إلى هذا المركز السامى قد لعب دوراً هاماً عند ما قام الافرنج بحصار دمشق أيام أنار الذى وصل أيوب بعد وفاته إلى مركز القيادة لقواد الجيوش

وبينما كان أيوب يخطو هذه الخطوات في حياته ، كان أخوه أسد الدين شيركوه يعمل في جيش محمود نور الدين بجد وهمة ونشاط ، حتى أن نور الدين لم يكتف باقطاعه الأقطاعات العديدة بل أقامه قائد قواد

جيوشه كلها لما ظهر له فيه من الأقدام والبسالة والشجاعة النادرة المثال

في هذا الوقت كان قد مات أنار الذى طالما وقف فى وجه زنكي فمنعه دخول دمشق تلك التى كانت محط آماله ومنتهى رغباته ، وأصبح أيوب - أخو شيركوه قائد قواد نور الدين - صاحب الكلمة في دمشق ، كما أن الأفرنج قد انكسروا شر كسرة في حملتهم الثانية الصليبية عند ما قاموا بحصار دمشق ، وكذلك هدأت الأحوال فى بلاد الجزيرة تحت إمرة أخي نور الدين الكبير ، وأدى أمير دمشق الطاعة لصاحب حلب ، وهو محمود نور الدين الذى ورث طمع والده في دمشق نفسها ، فأرسل نور الدين هذا جيشاً بقيادة شيركوه إلى دمشق فى أواخر سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٤ م) فلم يشأ نجم الدين أن يقوم فى وجه أخيه من جهة ، ولم يرض أن يقوم في وجه جيوش ابن سيده من جهة أخرى ، فأخذ يفاوض أخاه ، وانتهت المفاوضة بعد ستة أيام بدخول جيوش نور الدين دمشق ، فانتقلت المدينة إلى يد أقوى أمير في الشام لوقته ونال الاخوان بذلك أحسن الجزاء على ما قاما به من الخدمة الصادقة والأخلاص ، وأصبح نجم الدين من أخص جلساء نور الدين ، بعد أن عينه حاكما لدمشق ، وبقى بها حتى استدعاه ولده صلاح الدين إلى مصر كما سيجىء بعد

قضى صلاح الدين فى بعلبك بعض سنى طفولته ، وهى من أسعد السنين وأهنئها ، إذ لا يلتفت إليها مؤرخ ، ولا يهتم بها كاتب ؛ ولم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من أخبار الحياة الخاصة بنجم الدين وأسرته فى بعلبك ، غير أن الذى يمكننا ملاحظته هو أن صلاح الدين ، باعتباره طفلا مسلما ، لابد أن يكون قد اختلف إلى الكتاب كما يختلف إليه غيره من أولاد المسلمين

لحفظ القرآن الكريم ولتعلم القراءة والكتابة ، كما أنه تلقى هناك أيضاً مبادئ النحو ومبادىء الشعر وقواعد اللغة . فقد جرت العادة أن يتعلم أولاد حكام المسلمين ، مهما كانت جنسيتهم ، اللغة العربية والقرآن والحديث والنحو . هكذا يقول استانلى لين پول

ولما كان والده من رفعة القدر بحيث ينزل عادة حاكم المدينة ، فقد يتبادر إلى الذهن أن قد جيء إلى صلاح الدين بأحسن المعلمين الممكن الحصول عليهم فى ذلك الوقت ، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا من ذلك شيئاً إلا ما ورد فى كتاب طبقات الشافعية ، وذلك إنما يتصل بأيام شبابه لا بأيام طفولته . يقول صاحب هذا الكتاب « وسمع ـ صلاح الدين ـ الحديث من الحافظ أبى طاهر السلفى وأبى الطاهر بن عوف والشيخ قطب الدين النيسابورى وعبد الله بن برى النحوى وجماعة » ثم يقول « وكان فقيها يقال إنه كان يحفظ القرآن والتنبيه فى الفقه والحماسة فى الشعر »

ومهما يكن من الدرجة التى وصل اليها صلاح الدين فى حياته الأولى هذه ومقدار الأساتذة الذين تولوا تربيته الأولى ، فان الصلة بين ذلك وبين ما صار اليه فيما بعد ليست بذات خطر

أما فى المدة التى وقعت بعد استيلاء نور الدين على دمشق ، وبين إرساله أول حملة على مصر ، فلم يذكر المؤرخون المسلمون المتقدمون شيئاً عن حياة صلاح الدين أثناءها ؛ أما مؤرخو الافرنج فقد قال بعضهم إن صلاح الدين كان يتردد إلى مجلس نور الدين ، وله من الاعتبار والاحترام ما لابن حاكم دمشق ؛ ثم يستنتجون من الأحوال وقتئذ أنه ظهر بمظهر

الشاب المهذب الهادىء المطمئن المتدين المتقد غيرة على الاسلام والمسلمين بما طُبع فى نفسه من آثار نور الدين الذى أنزله لديه منزلة خاصة ، وبما لوالده من الأيادى البيضاء ؛ بيد أن حالته هذه لم تنم على ما كان له بعد ذلك من العز والسلطان والسطوة والجبروت

كان من عادة الأمراء السوريين الولع بالصيد والقنص ومنازلة الحيوانات الكاسرة وتربية الطيور ، وليس هناك من ريب في أن صلاح الدين كان فى مصاف هؤلاء الأمراء منزلة ، ومن أعظمهم شأناً وأرفعهم قدراً وأعلاهم كعباً ، لما كان لوالده وعمه من المنزلة عند نور الدين ، كما سبقت به الاشارة ، غير أن مؤرخى الأفرنج يقولون بأنه رغماً من هذا لم يسمعوا بأن صلاح الدين ولع يوماً بالصيد والقنص أو تربية شىء من الطيور والحيونات ، بل كل ما عرفوه عنه كما يقولون هو أنه سلك سبيل الحياة الهادئة المطمئنة ، على مثال والده من الرزانة والحكمة ، خلافا لما كان عليه عمه من الأقدام ، ثم يقولون بأنه إذا جاء دور العمل ووجد أمامه طريقاً وعراً صعباً لكن يقود إلى الشهرة والعظمة ، وآخر سهلا ليناً يقود إلى الشرف والسكينة ، وجدته يفضل الثانى على الأول ؛ وإنى أظن بل أعتقد أن الذى قاد هؤلاء إلى مثل هذا الظن بصلاح الدين ، امتناعه عن أن يرافق عمه فى غزو مصر للمرة الثالثة لولا تشبث عمه بضرورة رحيله معه ؛ على أنهم لو ركنوا إلى هذا الحادث ونسبوا له ما نسبوا ، ما كان لهم أن ينسوا ما عاناه من المتاعب فى المرتين الأولى والثانية ، وقيامه فى وسط الجميع يصفق استحساناً واعجاباً لذلك الذى قال قُبيل واقعة

البابين، عندما استشار شيركوه القومَ في الأوبة إلى الشام أو العمل في مصر « إن الذين يخافون الموت ويستكبرون الأسر، لا ينبغي لهم أن يخدموا الملوك، فليخلعوا ثياب الجند، وليلبسوا ثياب الحرائر، أو فليكونوا رهن بيوتهم فى أحضان نسائهم » فطرب صلاح الدين وصفق له حتى كادت تدمى يداه؛ فى حين أن جميع أركان حرب شيركوه كانوا على رأي من قال بعدم المجازفة فى دخول غمار الحرب، وكان هذ سبباً فى أن استمر شيركوه فى غزوته، واستولى على الاسكندرية وكان من أمره ما ستعلمه فيما بعد

أما عدم ولوعه بالصيد والقنص فيخيل إلى أن القوم قد بالغوا فيه؛ كلنا يعلم مقدار عشق العربى لجواده وركوبه والسباق به، ويعرف ما يتحلى به الطفل العربى من هذه الخصال، وهي حال محسوسة نرى منها الكثير حتى فى الأعراب الذين يجاورون قرى مصر وكادوا يكونون قرويين، فان الفروسية وامتطاء الخيل لاتزال عادة لهم، يألفونها منذ طفولتهم، فلم يشذ صلاح الدين وهو ذلك الكردى الأصل، وقد وصفنا الكردى وحاله فيما مضى؟

ألا إن القوم يريدون بذلك أن يخرجوا صلاح الدين من مكمنه الساكن إلى إقدامه وبسالته النادرة التى ظهرت فجأة، فيقولون إن هذا سر من أسرار الله لأمر أراده، فنفخ في صلاح الدين هذه الروح من عنده دون سابق إعداد اليها؛ ألا فلينظروا ما كتبه العماد سنة ٥٦٣ ﻫ الى صلاح الدين وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب الكرة مع نور الدين

لا تنكرن لسابح عثرت به | قدم وقد حمل الخضم الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه | فهوى هنالك للسلام مبادراً
سبق الرياح بجريه وكففته | عنها فليس على خلافك قادراً
ضعفت قواه إذ تذكر أنه | في السرج منك يقل ليثاً خادراً
ومتى تطيق الريح طوداً شامخاً | أو يستطيع البرق جوناً ماطراً
فاعذر سقوط البرق عند مسيره | فالبرق يسقط حين يخطف سائراً
وأقلْ جوادك عثرة ندرت له | إن الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرها | لا كان ناظرها بسوء ناظراً
واسلم لنور الدين سلطان الورى | في الحادثات معاضداً ومؤازرا
فاذا صلاح الدين دام لأهله | لم يحذروا للدهر صرفاً ضائراً

ويقول العماد في موضع آخر ما يوضح ولوع نور الدين بضرب الكرة ويذكر بهذه المناسبة أن صلاح الدين كان يركب مبكراً كل بكرة

يقول هؤلاء المؤرخون إن الذي لا يمكن نكرانه على صلاح الدين، أنه كان أحد أولئك الأفراد الذين متى ذاقوا طعم الملك ولذة السلطان مرة لم يتركوا بعد ذلك فرصة في مد سلطانهم ونشر قوتهم. ولست أدري كيف يتفق قولهم هذا مع امتناعه من الذهاب إلى مصر مرة ثالثة بعد أن ذاق طعم الامارة بالاسكندرية في الحملة الثانية على مصر

كان العلماء يفدون إلى دمشق أيام نور الدين من الشرق والغرب، من سمرقند ومن قرطبة ليعلموا ويتعلموا في مساجدها ومدارسها؛ ومن الراجح كثيراً أن صلاح الدين قد استمع على أكثرهم لا سيما عندما كان

يجلس فى الجامع الأموى عبد الله بن عصرون يلقى محاضراته هناك ؛ وما أظن صلاح الدين تلمذ لأحسن من هذا الأستاذ الذى كان إمام عصره فى مواهبه ومـداركه ، وهو الذى أحضره نور الدين وابتنى له المدارس فى دمشق وأمهات مدن الشام ، ليدرس بها وينشر العلم فى ربوع الشام كلها ، وقد بلغ هـذا الشيخ إلى مركز قاضى قضاة الجزيرة . ومن أجلّ ما يتحدث به عن صلاح الدين وإخلاصه أن قد أبت عليه مروءته إلا أن يقرب هذا الشيخ من مجالسه عند ما فقد بصره، فجعله من أخص خواصه

يدهش بعض المؤرخين إذا قارنوا بين حياة صلاح الدين الأولى ، وهى على ماهى عليه من الهدو والسكينة ، وبين ما كان عليه عمه شيركوه من الأقـدام والاندفاع وراء أطماعه الكبيرة التى كانت تقوده فى بعض الأحيان الى منافسة نور الدين نفسه لولا ما كان من حكمة أيوب

قام شيركوه بإمارة الحج سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وأظهر فيها من الكفاءة ما أنطق لسان الجميع بمدحه ومقـدرته ، وتنكر علماء الأفرنج على صلاح الدين عدم الذهاب مع عمه لتأدية فريضة الحج على الأقل إن لم يكن للقيام ببعض أمور هذه الرحلة ؛ على أنه كيف يقولون عنه إنه كان شاباً صالحاً ناسكاً ، وهذه فرصة قل أن يسمح الزمان بمثلها وهى وجود عمه أميراً للحج دون أن يتقدم لمصاحبته لتأدية الفريضة ، ما دام متعبداً لله خاشعاً ؛ غير أنى لا أوافق القوم فى مسألة تدين صلاح الدين إلى حد أن صار من المنزوين فى أركان المساجد وزوايا البيوت . كيف نجمع بين هـذه الحال وبين ما يقوله صاحب حماه فى تاريخه « ولما فوض الأمر —

أمر وزارة العاضد ـ إلى صلاح الدين ، تاب عن شرب الخمر ، وأعرض عن أسباب اللهو ، وتقمص لباس الجد ، ودام على ذلك إلى أن توفاه الله ، ولم نسمع أن شارب الخمر المنغمس في اللهو يكون هادئاً مطمئناً ديناًلله خاشعاً

يقول هؤلاء المؤرخون إنه كان لشيركوه نصيب كبير فى فتوحات نور الدين ولم يسمعوا أن صلاح الدين اشترك فى واحدة منها ، ولو فعل لذكرها له مؤرخوه ؛ والمعروف عنه أنه ظل ساكناً في مكمنه ، حتى بدأ شيركوه بحملاته على مصر ، فهجر صلاح الدين عزلته وخطى بجسارته تلك الخطوات التى جعلته سلطان المستقبل ووارث زنكى بطل الأسلام والمسلمين . على أن هذا يخالف ما ورد فى كتاب الروضتين فى رسالة من أنشاء القاضى الفاضل أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة المستضىء بأمر الله فى بغداد عندما دخل دمشق يقول فيها « كان أول أمرنا أنا كنا في الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين بعساكرنا نحن ووالدنا وعمنا فى أى مدينة فتحت أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر أو مصاف للأسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ولا يجحد عدونا أنا نصطلى الجمرة ونملك الكرة ونتقدم الجماعة ونرتب المقاتلة وندبر التعبية إلى أن ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرها ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ، وكانت أخبار مصر .ألخ » على أنه رغم هذا فالمقارنة لاتجوز بين شيركوه وصلاح الدين إذ أين قائد القواد من ابن حاكم دمشق ، وأين الشيخ من الشاب فى أعماله وأحواله

هذا رأى مؤرخي الأفرنج فى حياة صلاح الدين الأولى ولست

على رأيهم فلى نظر يخالف نظرهم في صلاح الدين ، ذلك البطل الذى ظهرت فروسيته وشجاعته فملأت قلوب الافرنج رعباً وفزعاً ، ذلك الذى إن صال صولة انتزعت لها قلوب الأعداء من أمكنتها هلعاً ، وإن طاف طوفة شخصت لها عيونهم إكباراً له وتعظيما ، فهل ظهر بهذه الصفات في العقد الثالث والرابع والخامس من حياته دون أن يكون لها نصيب في عقديه الأول والثانى ، لاسيما إذا لاحظنا أنه كردى ، وقد علمنا ما للأكراد من الشجاعة منذ نعومة أظفارهم ، تلك طبيعة فيهم لا يستطيعون الفرار منها ، فكيف بصلاح الدين وقد جمع بين كردية أصله ونباهة والده وسمو منزلته ، فاذا أغفلنا أنه كردى الأصل من نسل قوم اشتهروا بالشجاعة والأقدام ، فهل نغفل أنه ابن حاكم دمشق وأنه أمير من أمرائها المقربين؟ هذا فيما يختص بفروسيته وعدم ولعه بالخيل وركوبها والقنص والصيد ؛ أما فيما يختص بعيشة العزلة بعيداً عن الأعمال اللهم إلا ما تقرب بها إلى الله ، فكيف برجل كان جليس نور الدين ولا يشتغل بالأمور العامة . يجلس الفرد منا في مجلس خاص اعتاد الكلام في موضوع خاص فلا يلبث أن يكون واحداً منهم ، فلم لا يكون هذا حال صلاح الدين مع نور الدين ؟ اللهم إن القوم يريدون أن يقولوا إن الله أرسل صلاح الدين هاديا ومبشراً ونذيراً ومنتقما . يريدون أن يقولوا إن هذه صفة يهبها الله لعبد من عباده ليقوم بعمل يريده هو سبحانه وتعالى ثم يذهبون من هذا إلى قولهم إن الله بعث بطرس الناسك فحرك بقوة ربه أوروبا لتنقذ قبر المسيح والبلاد المقدسة من أيدى المسلمين العابثين بها ، فملكوا البلاد وأذلوا العباد

وشتتوهم أيدى سبا وأقاموا لهم ملكاً عظيما. فلما ضربوا فى الارض وظنوا ألا قوة إلا قوتهم، طغوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ما احمرت منه الارض خجلا، فأرسل الله صلاح الدين بروح من عنده لم يعرفها أحد عليه قبل ذلك ليوقع عقابه بهم على يديه، فكان من أمره ما كان، هذا مايريد القوم إظهاره، ولكن لدينا مايثبت أن حياة صلاح الدين كانت على غير ما وصف هؤلاء فقد قال ابن شداد فى كتابه ـ النوادر السطانية ـ مانصه «واتفق لوالده أى والد صلاح الدين — الانتقال إلى الشام وأعطى بعلبك وأقام بها مدة فنقل ولده المذكور - أى صلاح ـ الدين إلى بعلبك المحروسة وأقام بها في خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه إمارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، فقدمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله تعالى، وعول عليه ونظر اليه وقربه وخصصه، ولم يزل، كلما تقدم قدما، تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه، الى ما هو اعلا منه»

ولما استصرخ شاور بنور الدين، وأمر أسد الدين شيركوه بالخروج إلى مصر قضاء لحق الوافد المستصرخ، تأهب أسد الدين ـ كما يقول ابن شداد ـ وسار إلى مصر، فاستصحبه ـ أى صلاح الدين ـ معه رحمه الله عن كراهية منه لمكان افتقاره اليه وجعله مقدم عسكره. فكيف يكره نور الدين رحيل صلاح الدين ان لم يكن له في وجوده معه أكبر عضد، وكيف يجعله مقدم العسكر إذا لم يكن قد باشر الحرب والنزال من قبل؟ ثم يقول ابن شداد «وكان ـ أى أسد الدين لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورأيه

لما لاح له من آثار الأقبال والسعادة والفكرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته »

وجاء فى دائرة المعارف للبستانى تحت كلمة صلاح الدين ما نصه « مؤسس الدولة الايوبية بديار مصر وصاحب البلاد المصرية والشامية والعراقية واليمانية ، الغازى المشهور وصاحب الفتوحات العظيمة والمواقع الكبيرة مع الأفرنج فى الحروب الصليبية ،تربى فى كنف والده حتى ترعرع؛ ولما ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق لازم خدمته نجمُ الدين وولده صلاح الدين ،وكانت مخايل السعادة والتقدم تلوح عليه ،ونور الدين يرى ذلك منه ويؤثره ،ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد فى أمور الجهاد »

وجاء فى كتاب تليانى ما ترجمته « كان صلاح الدين رجلا شجاعاً عظيما مقداماً تمكن بمواهبه الفطرية التى فطر عليها أن يرفع نفسه لا إلى درجة سلطان (بابيلون) فحسب بل أوجد لنفسه مجالا صار به فاتح البلاد وممدوح الأمم النصرانية الأفرنجية فى مواقع عدة انتصر فيها عليهم انتصاراً باهراً، كما أنه حاز من النصر على غيره من أمراء الشرق ما جعله سلطان عصره وأمير الأمراء لوقته »

وجاء فى دائرة المعارف الأنجليزية ما ترجمته « ولقد تربى صلاح الدين على هذا — أى باعتبار أن والده كان حاكم دمشق — فى أكبر مركز للتعليم الأسلامى ،وقد ظهر صلاح الدين فى ثوب أحسن متعلم مسلم »

ويقول الأمير على فى كتابه (مختصر تاريخ الأسلام) ما ترجمته

« أما صلاح الدين فقد تولى عدة وظائف تابعة لمولاه نور الدين قبل مجيئه إلى مصر مع عمه »

ويقول صاحب كتاب الروضتين « فلما كانت هذه السنة (٥٦٢ هـ) تجهز - أى أسد الدين شيركوه وسار إليها (مصر) وسير نور الدين معه جماعةً من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفى ذلك يقول العرقلة

أقول والأتراك قد أزمعت مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الصـ ـديق من أولاد يعقوب
يملكها فى عصرنا يوسف الصـــادق من أولاد أيوب

وهذه هى المرة الثانية التى ذهب فيها شيركوه إلى مصر، ولو كان الشعراء ممن يعتد برأيهم كثيراً لأوردت غير هذا مثل قصيدة العماد التى يمدح بها نجم الدين حيث يقول

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب ولا الفراق إلى عيشى بمنسوب
ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى كرهاً بما ليس يا محبوب محبوبي
أرجو إيابي إليكم ظافراً عجلا فقـد ظفرت بنجم الدين أيوب

ثم يقول

أخوك وابنك صدقاً منهما اعتصما بالله والنصر وعد غير مكذوب
هما همامان في يومى وغى وقرى تعودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان فى الكفار نار وغى بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غداً تحظى النفوس بتأنيس وتطييب

obeikandi.com

ويستقر بمصر يوسف وبه تقر بعد التنائى عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها بأخوته والله يجمعهم من غير تثريب

ويقول صاحب كتاب طبقات الشافعية « ثم اتصل والده — أى والد صلاح الدين — نجم الدين أيوب بالملك نور الدين الشهيد فخدمه هو وولده صلاح الدين هذا خدمة بالغة »

هذا كله مما يوضح لنا بأجلى بيان أن صلاح الدين لم يعش عيشة النساك البعيدين عن الحياة والعمل فيها ثم انتقل إلى حياة العمل والجد والنشاط فجأة من غير سابقة ولا مقدمة تقدمت هذا المظهر الجليل والعمل الكبير الذى عرفه العالم الأفرنجى والأسلامى عن صلاح الدين

وفوق هذا وذاك ، فالعماد يقول فى حوادث سنه ٥٧٢هـ « في السادس من المحرم توفى بدمشق القاضى كمال الدين بن الشهر زوزى وعمره ثمانون سنة ، لأن مولده فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ؛ وكان فى الأيام النورية بدمشق هو الحاكم المتحكم ، وصلاح الدين إذ ذاك يتولى الشحنكية بدمشق ، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوجيه الأحكام الشرعية ، وربما كسر أغراضه ، وأبدى عن قبوله إعراضه ، ويقصد في كل ما يعرض له إعراضه ؛ وكم صبر على جماحه بحامه وراضه إلى أن نقله الله من نيابة الشحنكية إلى الملك ، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السلك ؛ وكان فى قلبه مما فرّط فيه وما فرط منه ، ما فات وقت تلافيه ؛ فاما ملك دمشق أجراه على حكمه ، ولم يؤاخذه بجرمه ، واحترم نوابه ، وأكرم أصحابه ، وفتح للشرع بابه ، وخاطبه واستحسن جوابه الخ »